

2019

اللغة والثقافة والهوية: الهوية اللغوية وبناء المجتمع الوطني اللبناني المشترك

Li Ya Juan

Shanghai International Studies University, alleiallei@163.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan>



Part of the [Linguistic Anthropology Commons](#), and the [Modern Languages Commons](#)

Recommended Citation

Juan, Li Ya (2019) "اللغة والثقافة والهوية: الهوية اللغوية وبناء المجتمع الوطني اللبناني المشترك," *الجنان Al Jinan*: Vol. 11 , Article 16.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan/vol11/iss1/16>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *الجنان Al Jinan* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

اللغة والثقافة والهوية:

الهوية اللغوية وبناء المجتمع الوطني اللبناني المشترك

DOI: 10.33986/0522-000-011-016

مقدمة

تعد اللغة، فضلاً عن دورها المهم كأداة تحاور ونقل لمعلومات، من الأوعية المهمة في تكوين الهوية، فهي مخزون الحضارة والأفكار للأمة، لما تعبّر عنها من تراكم معرفي للأجيال المتعاقبة، وهي الميزان الذي به تقاس الهوية وقدرتها على الثبات والتحول أمام المستجدات والتطور. اللغة هي التي تربط بين الحضارات والتي تخلد الأمم، كأنها مفتاح الغد الذي ينقل الماضي وإرثه، فإنّ الثقافات تتحاور وتتداخل مثلها مثل اللغات. واللغة هي الوعي الإنساني للواقع ولها قيمة ثقافية مهمّة كرمز لوجود الأمة، هي واحدة من العناصر الأساسية لهويات الأمة والجنسيات، ووسيلة لنقل الإرث الفكري الخاص بالمجتمع اللبناني، والأساس لتشكيل المجتمع الوطني اللبناني المشترك وتوحيده. ولذلك، فإنّ تعزيز هوية اللغة هو الطريق لبناء مجتمع وطني لبناني مشترك. يندرج هذا البحث في مجال اللغة والثقافة والهوية، وحاولت من خلاله الإجابة عن السؤال: ما هي العلاقة بين الهوية اللغوية والهوية الثقافية، وكيف تؤثر الهوية اللغوية للجماعة في بناء المجتمع الوطني اللبناني المشترك؟ وأهدف منه إلى بيان مدى تأثير قوة الهوية اللغوية في تطوير اللغة وترقيتها، وضرورة تعزيز الوعي اللغوي في مسيرة بناء الدولة، وتنمية الشعور بالاعتزاز باللغة وباستعمالها لدفع أبنائها نحو تطويرها وترقيتها باعتبارها إحدى أهم أدوات بناء الثقافة اللبنانية.

الكلمات المفتاح: الهوية اللغوية، الهوية الثقافية، أزمة الهوية اللغوية اللبنانية

أولاً: الهوية اللغوية والهوية الثقافية

أ- مفهوم الهوية والهوية الثقافية

ما هي «الهوية»؟ وبالعودة إلى مصطلح «الهوية»، نجد أنه يشتق من الضمير «هو» أما مصطلح «الهو» فمركب من تكرار «هو»، فقد تم وضعه كاسم معرف بأل، معناه الاتحاد بالذات^(١). «الهوية» مأخوذة من الكلمة الألمانية "identität"، وتشير في الأصل إلى معنى إثبات الهوية. وعادة ما يتم تعريف الهوية في القواميس بأنها «من هو الشخص»، أو «صفات الشخص» أو «المجموعة التي تجعل الشخص مختلفاً عن الآخرين». وما ينطوي عليه مفهوم الهوية هذا هو أن هناك شيئاً يحدد وجود الفرد أو المجموعة. وتُعرفُ الهويةُ على أنها مجموعةٌ من المُميّزات التي يمتلكها الأفراد، وتساهم في جعلهم يُحقّقون صفة التفرد؛ الانفراد؟ عن غيرهم، وقد تكون هذه المُميّزات مشتركة بين جماعة من الناس سواء ضمن المجتمع أو الدولة. ومن التعريفات الأخرى لمصطلح الهوية أنها كل شيء مشترك بين أفراد مجموعة مُحدّدة أو شريحة اجتماعية تساهم في بناء مُحيط عام لدولة ما، ويتمّ التعامل مع أولئك الأفراد وفقاً للهوية الخاصة بهم^(٢).

الهوية يمكن تصنيفها وفقاً لدرجة عقلانية الهوية أي يمكن تقسيمها إلى هوية جهل وهوية عقلانية؛ ووفقاً للفئة الثقافية لتحديد الهوية أي يمكن تقسيمها إلى هوية ثقافية «غير سياسية» وهوية ثقافية «سياسية» أو مقسمة إلى هوية عائلية وهوية ثقافية إقليمية وهوية قومية وهوية وطنية إلخ. وإذا قسّمنا ظاهرة الهوية إلى عدّة أقسام، يسهل فهم الهوية بطريقة شاملة أكثر، وتسهل معرفة العلاقة بين أقسام هذه الهوية، وتسهل معرفة العلاقة بين اللغة والهوية.

فالهوية الثقافية هي انصهار الذوات الفردية أو الأنا الذاتية لكل فرد في بوتقة واحدة، هي الجماعة أو ال «نحن» التي تشكل الضمير الجمعي والوعي الاجتماعي الذي بموجبه أفكر وأشعر وأعمل وأسلّك، كما تشكل العقل الجمعي الذي بموجبه أحكم، والخيال والأساطير الشعبية التي بموجبه أرغب وأحلم. وجوهر الهوية الثقافية هو الاعتراف بالقيم الأساسية التي تشكلها الأمة في عملية تطور التاريخ. وتشير الهوية الثقافية إلى مشاركة الناس في النماذج الثقافية الموحدة (الإيمان والقيم والأعراف والعادات إلخ). بالإضافة إلى ذلك، لديهم شعور نفسي ووعي مشترك في الثقافة. إنّ هذا الإجماع والأعراف بالتوجه الثقافي يهيمن على الأعراف والقيم الإيديولوجية لسلوك الناس. ومن منظور الوطن، تتميز الثقافة بالثقافة الوطنية؛ ومن الناحية السياسية، تشمل

(١) عباس الطائي، آفات اللغة والهوية، مقال نشر على الموقع الإلكتروني: www.ahwazstudies.org

(٢) أب محمد جماعة، الهوية المتعددة الأبعاد، المشهد التونسي، أطلع عليه بتاريخ ٢٠١٦-١١-٣.

الثقافة القواعد والرموز والمعتقدات والأساليب السياسية؛ ومن منظور اجتماعي، تشمل الثقافة العادات وأنماط الحياة وأشكال التفكير. وتضطلع الثقافة بدور هام في تكوين الأفراد والجماعات والهوية العرقية.^(١)

ب- مفهوم الهوية اللغوية

إنّ الهوية اللغوية (linguistic identity) هي وعي أفراد الجماعة لهذا المكون وأهميته في تشكيل الجماعة في الماضي والحاضر والمستقبل، وينمّي هذا الوعي اعتزازهم باللغة وباستعمالها ويقوي في أنفسهم الرغبة في تعلّمها، وتعليمها لأبنائهم، ويدفعهم إلى تطويرها وترقيتها؛ فكلّما قويت الهوية اللغوية زاد وعي الجماعة بأهمية اللغة واعتزازهم بها وباستعمالها والعمل على تطويرها، وكلّما ضعفت الهوية اللغوية لدى أعضاء الجماعة ضعف اعتزازهم بها وقل استعمالهم لها في مناحي الحياة المختلفة واستعاضوا عنها باللغات الأجنبية. وتتأثر الهوية اللغوية بالهويات الأخرى كالهوية الدينية إيجابا وسلبا، وتؤثر بدورها في الهوية الاجتماعية كلّها إيجابا وسلبا.^(٢)

وقد ارتبط مفهوم الهوية منذ ظهوره بمصطلح اللغة، فاللغة كانت ولا تزال أبرز علامات الوجود وأهم مظاهر التعبير عن الجماعة، واتفق معظم الدارسين في مختلف التخصصات أن اللغة من أهم العناصر المشكلة للهوية الاجتماعية الثقافية الوطنية^(٣)، وبما أن اللغة خاصّة بكلّ مجموعة على حدة، وبما أن لكلّ مجموعة خصوصيتها، فإن هذا النظام لا يمكن أن يكون مجرد وسيلة اتصال محايدة، بل إنّهُ يصدق عليه تعليق كريستين فريشات (Christine Fréchette)، القائلة «إن اللغة حاملة لهوية، وقيم، وتاريخ ومعنى. إنّها تُحقّق التلاحم الاجتماعي، وتدعم تنامي الإحساس بروح الانتماء إلى المجموعة.» هو الأمر نفسه الذي سبق لساطع الحصري تأكيده بقوله: «إنّ وحدة اللغة ترسخ نوعا من وحدة الأفكار والمشاعر... وإن اللغة هي الصلة الأكثر متانة التي تربط بين الفرد والمجموعة».^(٤)

إن النظر إلى اللغة في علاقتها بالهوية يتجاوز كونها أداة تواصل بين أفراد الجماعة إلى النظر إليها باعتبارها رمزا من رموز الجماعة تشارك في تحديدها وتعريفها، وأداة توحيد ومحافظة على الجماعة واستمرارها وهو ما يوضحه «رمزي بعلبكي» قائلا: اللغة، منظورا إليها

(1) Weillie Zhu: *Strategic Studies on International Cultures*, Shanghai: Shanghai Foreign Language Education Press, 2002, pp91.

(٢) سعاد بضياف، لبوخ بوجمليين: أثر الهوية اللغوية في تطور اللغة العربية، مجلة الأثر، العدد ٢٥، ٢٠١٦.

(٣) أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، ص: ٧٣.

(٤) رمزي بعلبكي، وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العرب إشكالية تاريخية وثقافية وسياسية، ص: ١٢.

من زاوية الهوية، ليست مجرد أداة تواصلية محايدة وسلبية، بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهوية، وتطويرها، أو على العكس من ذلك تدهورها وتحللها، فضلاً عن كونها أحد أركانها وأنحائها الكبرى.^(١)

ج- أبعاد الهوية اللغوية

وعند دراسة اللغة والهوية، يجب أن نميز بين عدة أبعاد: الأول هو البعد النظري والآخر هو البعد التطبيقي. فعلى المستوى النظري، يجب توضيح العديد من المفاهيم، مثل كيفية تعريف اللغة وكيفية تحديد اللغة واللهجة. وتختلف الاختلافات بين اللهجات اللبنانية واللهجات الخليجية واللهجات المصرية عن الإنجليزية والفرنسية، فنحن نستخدم اللهجات اللبنانية واللهجات الخليجية كلهجة عامية، ونعتبر اللغة الفرنسية والإنجليزية من فرع لغوي آخر. لذلك، لا تنقسم اللغات واللهجات في شكل أساسي وفقاً لخصائص علم اللغة، لكن وفقاً للعوامل المختلفة مثل الثقافة والسياسة والمجتمع والتاريخ.

لذلك، عندما نتحدث عن مسألة الهوية اللغوية، يجب علينا التمييز بين مستوى الهوية أو الهوية الثقافية أو الهوية الوطنية أو الحالة الاجتماعية أو هوية القيمة. وإن المجموعات الاجتماعية هي هرمية، بعضها يتكون من مجموعات صغيرة ذات وضع اجتماعي مختلف، والبعض الآخر مجموعات كبيرة منفصلة عن المستويات الوطنية، لذلك ينبغي التمييز بين هذا في التعريف. والهوية اللغوية موضوع أكاديمي قوي من الناحية الاجتماعية والواقعية. إن «الهوية اللغوية» موضوع يهتم بالعديد من العلوم مثل علم اللغة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية، وهي أيضاً قضية واقعية تواجه أي مجتمع ودولة في العالم الراهن. وتتعلق بالقضايا العملية التي يتعين تناولها في تنمية المجتمع، كالتراث الثقافي والوحدة الوطنية وسلسلة من السياسات اللغوية والسياسات التعليمية والسياسات العرقية.

د. العلاقة بين اللغة والهوية الثقافية

هل هناك علاقة بين اللغة والهوية الثقافية؟ إذا كانتا مرتبطتين، فما العلاقة بينهما؟ في الحياة الواقعية، يمكنك ضرب عدد من الأمثلة على اللغة والهوية. وفي الوعي اللغوي لدى كثير من الناس، ترتبط اللغة والهوية الثقافية، ويأمل بعض صانعي السياسة تحقيق هدف معرفة الهوية عن طريق تدريس اللغة. كما يمكن أن تكون اللغة سبباً في انقسام وانفصال المجتمع أو الوطن،

(١) رمزي منير بعلبكي، وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العرب إشكالية تاريخية وثقافية وسياسية، ص: ٥٢.

وذلك إذا تعددت لغات الجماعة ورفضت أي الجماعة التخلي عن لغتها لصالح لغة أخرى توحد الجماعة، فتنفصل كل جماعة بلغتها الخاصة وهو ما حدث في كثير من البلدان التي شهدت حروباً أهلية أسبابها لغوية.

ومع ذلك، هذا مجرد افتراض، فإنّ الوضع الحقيقي يتطلب دراسة دقيقة. ويبدو الآن أن قدرة الشخص على التعبير في اللغة الأم واستخدامها لا تساوي قدرته على التعبير في اللغة الثانية واستخدامها. وفي شكل عام، تتسم اللغة الأولى والهوية الثقافية، وخاصة الهوية الثقافية «غير السياسية»، بعلاقة «وثيقة الصلة». وفي حالات أخرى، قد تكون اللغة الثانية والهوية الثقافية ذات صلة ضعيفة، لكنها قد تكون أيضاً علاقة معقدة. فضلاً عن ذلك، والأطفال الذين نشأوا في بيئة متعددة الثقافات واللغات قد يكون لديهم «هوية متعددة الثقافات». وأصبحت حالة تعدد الثقافات واللغات تدريجياً الحالة الطبيعية في المجتمع الحديث، وقد تغير خصائص هوية الناس.

كذلك، إنّ الهوية اللغوية هي الفرضية والأساس لتكوين المجتمعات الثقافية الوطنية وتوحيدها وتطويرها. واللغة، كظاهرة ثقافية خاصة، مرتبطة بالثقافة والقومية. وللغة قيمة ثقافية هامة: اللغة مترامنة مع التاريخ، إذ، عن طريق استكشاف تاريخ تطور اللغة، يمكن للمرء تتبع أصل الأمة وتطورها واستكشاف تاريخ حضارة الأمة.

وفي الوقت نفسه، بين الهيكل اللغوي والهيكل الثقافي روابط داخلية عميقة، وهذا يقيد خصائص البنية الثقافية التي شيدتها دولة ما في تقدمها. وإن الإنسان هو خالق القيم الثقافية ويورثها إلى الأجيال اللاحقة، وإن اللغة هي الناقل للثقافة وتعكس مظهرها هاماً للقيم الثقافية. وتحتوي اللغة نفسها على المعرفة والمعتقدات عند مستخدمي اللغة، وهذا يعكس الطريقة التي يفكر ويتصرف بها الشخص. وإن الثقافة كخلفية لمستخدمي اللغة غالباً ما تقيد أشكال اللغة، وتغرس جوهرها الخاص في أشكال اللغة لتصبح الدلالة الثقافية للأداء اللغوي. ومن وجهة النظر هذه، إن تطور اللغة هو نتيجة لتطور الحضارة الإنسانية، فاللغة ترافق الأمة والثقافة الوطنية.

وتعتبر اللغة جزءاً مهماً من ثقافة الوطن القومية، إذ يمكن لكل لغة أن تعكس الخصائص الوطنية والوعي القومي لدى مستخدميها، ويمكن للغة القومية في كثير من الأحيان أن تعبر إلى الثقافة المرتبطة بهذه الأمة وتعبّر عن أيديولوجيات الأمة. وبالتالي، يعكس شكل اللغة الوطنية عادات تفكير الأمة بشكل مباشر. وإن لغة الأمة مبنية على عوامل تفكير الأمة وعاداتها وعوامل أخرى، فهي جوهر الخبرات المعيشية للأجيال، وتعكس أفكار الأمة وأفكارها في فهم العالم وتحويل العالم.

في الواقع، في أوائل من القرن السابع عشر، أشار الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون إلى العلاقة بين اللغة والناس، إذ يمكن أن يتكهن النَّاسُ الخصائص النفسية القومية لأمة من لغتها. كما شدّد هردر (Herder) وهنبولت (Humboldt) على العلاقة الجدلية بين لغة الأمة وروح الأمة، ومن وجهة نظرهما، تجسد اللغة حكمة الأمة وشخصيتها، فبالنسبة إلى الأمة ذات الطابع غير المباشر، في لغتها عدد كبير من الأسماء التي تعبر عن المفاهيم المجردة. أما بالنسبة إلى الأمة ذات الطابع المباشر والمتحمس والذكي، ففي لغتها عدد كبير من الأفعال التي تميل إلى أن تكون مليئة بالميول غير المقيدة. وبعبارة أخرى، فإن وجه اللغة يعكس خصائص الأمة إلى حد كبير.

ومن أجل فهم الأمة، يجب أن نفهم لغتها أولاً، فاللغة لا تسجل الثقافة وتعبّر عنها وترمز إلى الثقافة فحسب، بل هي أيضاً انعكاس لأساليب تفكيرها. فكما قال العالم اللغوي الأمريكي وليام دوايت ويتني (William Dwight Whitney)، لكل لغة هيكلها المميز الخاص بها، وشكلها الخاص وإيديولوجيتها الفكرية، فالناس الذين يستخدمونها كلغتهم الأم سيفرضون محتويات تفكيرهم ونتائج ونظرتهم للحياة وتجاربهم وفهمهم للعالم على هذه اللغة.

وكذلك، تحدث العالم البريطاني المعاصر هيوز واتسون في كتابه «الأمة والوطن» عن مسيرة تشكيل الأمة والدول المختلفة في العالم، مشيراً إلى الدور الحاسم للغات الوطنية في تشكيل المجتمعات الوطنية. في رأيه، إن تشكيل واستخدام لغة متداولة رسمية لها دور حاسم لتكوين الكيان الوطني، وفي هذا المعنى، تضطلع اللغة بدور حاسم في تشكيل المجتمعات الوطنية وتطويرها، هي الفرضية والأساس لتكوين المجتمعات الوطنية.

هذا الدور الكبير الذي تقوم به اللغة في تشكيل الهوية الثقافية جعلها مثل الدين تعددي كونها عنصراً عادياً من العناصر المشكلة للهوية الثقافية إلى كونها الهوية ذاتها وهو ما يؤكد قول عبد الرحمن بوردع «علاقة الهوية باللغة علاقة جدلية تفاعلية إذ ليست اللغة أداةً للتعبير فحسب، ولا وسيلة للتواصل بين الأفراد، ولا شأنًا من شؤون العلم والثقافة والتدريس، لكنها شأن من شؤون الهوية والأمن القومي والسيادة الوطنية والاستقرار الاجتماعي والنفسي، حيث اللغة مؤلف رئيس من مؤلفات الهوية في كل بلد، أو وطن، أو أمة، بل الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية واجتماعية وثقافية، يعني الإحساس بالانتماء إلى أركان الهوية التي هي الدين، والثقافة، والاجتماع. أما اللغة فهي الناطق الرسمي بلسان الهوية، ووسيلة إدراك العالم وتصنيف المجتمعات»^(١).

(١) بسام بركة، فايز الصياغ وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، ص: ٨.

هـ - الهوية اللغوية قابلة للتكوين

الهوية اللغة قابلة للتكوين، لها أهمية وجودية وأهمية معرفية. ومن منظور تخطيط اللغة، تعتبر الهوية اللغوية أمراً مهماً جداً. ما هو تخطيط اللغة؟ إنها مواصفات اللغة أو هوية اللغة. وإنّها تصهر الاختلافات في كيان موحد. وإن الهوية جدلية، في حين أن الهوية تؤكد الوحدة.

وبالنسبة إلى العلاقة بين الهوية وتخطيط اللغة، يمكن تقسيم الهوية إلى المستويين، هناك هوية قوية وهوية ضعيفة. فبالنسبة إلى بناء الدولة، يجب أن تؤكد الهوية القوية، أي تؤكد الهوية الموحدة. والغرض من ذلك هو بناء شعار الثقافة السياسية الوطنية. وكذلك، يمكن أن تنقسم الهوية إلى هوية موضوعية وهوية غير موضوعية.

الهوية الدينية والهوية العرقية هي أنواع من الهوية غير الموضوعية القوية التي يصعب بناؤها، أما اللغة فهي الهوية الموضوعية الضعيفة نسبياً، وهي قابلة للتكوين. وذلك يعني أنّ اللغة قابلة للتخطيط، ومن أجل تأسيس الهوية الوطنية الموحدة، يجب وضع تخطيط اللغة في مقام مهم.

ثانياً: الهوية اللغوية اللبنانية المهددة

لبنان بلد ذو هوية ثقافية ولغوية ودينية وجغرافية معقدة التركيبية. وتنقسم أربع لغات المساحة اللغوية التي تُشكّل المشهد الثقافي اللبناني، تُستخدم اللغة العربية والفرنسية والانكليزية والأرمنية في لبنان. ويوازي التنوع في اللغات تنوع المجموعات العرقية والطوائف الدينية التي تتكون من المسلمين (الشيعة والسنة والدروز والإسماعيلية والعلوية) والمسيحيين (المارونية والكاثوليكية واليونانية والأرثوذكسية والأرمن الأرثوذكس والكاثوليكية والكلدانية والآشورية والقبطية والبروتستانتية، إلخ) واليهود. فانتشار العديد من المجموعات العرقية والدينية والمذهبية يجعل من لبنان نموذجاً للتعايش ولكنّه من جهة أخرى، أدّى هذا الانتشار إلى حدوث «أزمة الهوية».

ولا شكّ في أنّ من أهم المشاكل التي يواجهها لبنان هي مشكلة اختيار لغة التعليم ولغة الحوار، وتحديد العلاقة بين هذه اللغة واللغات الأخرى المتداولة في المجتمع، وهي. علاقة تعكس نوعية المعرفة التي يكتسبها اللبنانيون وكيفية تكوين هويتهم وتطلعاتهم وانتمائهم.

أ- تعدد اللغات الأجنبية في الاستخدام والتعليم في لبنان

يتفاخر اللبنانيون بإتقانه ثلاث لغات على الأقل، وهي اللغة العربية أي لغته الأم إلى جانب اللغتين الإنكليزية والفرنسية. ويتجه العديد من الأهل في لبنان إلى تعليم أطفالهم لغات أجنبية

منذ شهورهم الأولى، ظنا منهم أن ذلك يساعد في اكتساب الطفل تلقائياً وبالفطرة هذه اللغات. إنَّ هذا الواقع المؤسف بات ينعكس في المجتمع اللبناني المعاصر، السائر نحو التعدد اللغوي المحيط باللبنانيين من كل حذب وصوب في الحياة اليومية، وخصوصاً في اليوميات العائلية والتعليمية، وحتى الترفيهية منها، وهذا دون أن يغيب عن البال توق بعض الأهل إلى ما يعتبرونه «رقياً وتميزاً» باعتماد اللغة الأجنبية، والابتعاد عن اللغة العربية التي يعتبرونها «لغة العامة» مع ظهور المدارس الخاصة التي تهتم بالتعليم اللغة الأجنبية بشكل عام. وهناك بعض المدارس الخاصة التي يمكن أن تساعد الطلاب على إتقان العديد من القدرات، لكن معظم هذه المهارات ترتبط باللغات الأجنبية.

وعلى الرغم من أنَّ التنوع اللغوي في لبنان ليس مسؤولاً بشكل مباشر عن نزاع الهوية، فهو يعكس الانتماءات والولاءات التابعة للغات المجموعات الدينية اللبنانية. فعلى سبيل المثال، ترتبط اللغة الفرنسية ارتباطاً وثيقاً بالمسيحيين أكثر منها المسلمين والدروز الذين يفضلون اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية. ويقدم شعبان وغيث (٢٠٠٠) بعض الأرقام الملفتة للنظر حول الانتماءات اللغوية: ٩٥٪ من الموارد، ٨٥٪ من الكاثوليك و٧١٪ من الشيعة والدروز يفضلون اللغة الإنجليزية. ويعكس حال هذه اللغة اليوم في لبنان الإتجاهات اللغوية، فقد تم تدريس اللغة الإنجليزية في المدارس التقليدية الفرنسية المتوسطة الخاصة من جرّاء العولمة.

ومن الواضح أن اللغة تتفاعل مع بناء الأمة والنزاع السياسي في لبنان، وهو التفاعل بين اللغة العربية كلغة أصلية والفرنسية كلغة استعمارية والإنجليزية كلغة العولمة. فالعربية هي اللغة الأم ولم يكن هناك محاولات لزحزحتها عن هذا الدور بعد أن أصبحت هوية لبنان كبداية عربي بندا في الدستور. أمّا اللغة الأجنبية، وبالرغم من دفع المفاهيم الجديدة باتجاه الثلاثية اللغوية، فتبقى أرض الصراع.

ب- الصراع بين اللغة العربية الفصحى والعامية

من المعروف أن لغة العربية شكلين لغويين، شكلاً فصيحاً وهو تنوع لغوي مقيس يستعمل في المجالات الرسمية، وشكل «عامي» يتمثل في مجموعة أخرى من التنوعات اللغوية (اللهجات) غير المقيسة، والتي تختلف من منطقة إلى أخرى وتستعمل في المجالات غير الرسمية. وفي دراسة العلاقة بين اللغة العربية والهوية ناقش كثر مسألة تحديد التنوع اللغوي الذي يمثل لغة هوية اجتماعية، وهي قضية إشكالية معروفة فكرياً، وعلى رغم أن معظم الباحثين يميلون إلى الاعتقاد بأن التنوع الفصح هو الذي يمثل أحد محددات الهوية العربية، فإنَّ الكثيرين أشاروا إلى

أن وجود التنوعات اللهجية واستعمالها في التواصل غير الرسمي وحتى الرسمي الشفوي أضعف الهوية اللغوية العربية وأثر سلباً في ارتباط العرب بالعربية الفصحى، إذ أدى إلى ضعف الكفاية اللغوية في العربية الفصحى، ونأى بها عن التعبير عن الحياة الاجتماعية والواقع المعاش حيث تولّت العامية ذلك، ومنه انحصر مجال استخدام العربية الفصيحة.

يبقى التحدي بين استخدام اللغة العربية الحديثة واللغة العربية اللبنانية أو ما يسمى «بالعروبة» و«باللبنانية» في لبنان ضمن مدار الصراع القديم بين العربية والفرنسية على الرغم من اختلاف التركيز اللغوي على «اللبنانية».

تنشأ مشكلة الازدواج اللغوي بين الفصحى والعامية في خلال تعلم الأطفال في المدارس إذ يتعلمون الفصحى في المدرسة ويتحدثون العامية في المنزل والسوق والشارع. وتختلف هذه الازدواجية التي تنشأ بين الفصحى وغيرها من اللغات الأجنبية مثلاً. ورغم ذلك فهي تمثل صعوبة. ومن أهم ما يهدد اللغة اجتماعياً ارتباط فرص العمل الجيدة بإجادة تعلم اللغات الأجنبية، وهذا ما يزعزع ثقة الفرد في لغته.

لقد أصبحت اللغة تواجه مجموعة من التحديات العصرية في لبنان، وكان لهذه التحديات الأثر الأكبر في الهوية الوطنية في كثير من جوانبها المتمثلة بالمتغيرات الثقافية والاجتماعية التي يمر بها لبنان، نتيجة لظهور وسائل الإعلام الحديثة، وسهولة التواصل بجميع أشكاله وأطرافه، ومن هذه التحديات أن الضعف اللغوي العام أصبح يؤدي بالتدريج إلى ذوبان الشخصية وفقد الهوية وانقطاع الصلة بالرابطة التي توحد الوطن اللبناني وتشد كيانه، وتحقق له استقلاله وتبوءه المكانة المرموقة بين الأمم الحية.

ثالثاً: تعزيز الهوية اللغوية استراتيجية مهمة لبناء مجتمع وطني لبناني

أولاً، تعزيز ترويج اللغة العربية الحديثة واستخدامها كلفة معيارية، وتنمية الوعي اللغوي المشترك للمواطنين اللبنانيين. وقد اعتبرت اللغة الموحدة ولغة البلاد شرطاً لا غنى عنه في بناء الأمة وتمييزها في لبنان. وإن ترويج اللغة العربية المعيارية من شأنه أن يجعل التبادل والاتصالات اللبنانية أكثر دقة، فيصبح مفهوم الأمة اللبنانية «معتزاً به ومقبولاً لدى الناس من جميع الجنسيات». أمّا فيما يخص اتجاهات التطور التاريخية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فإن ترسيخ درجة الاندماج في جميع المجالات وتعزيز اللغة العربية الموحدة واستخدامها سيساعد على تطوير علاقة أكثر ترابطاً، وتسهيل التبادلات بين المواطنين، وحل الطائفية، وتعزيز الوحدة الوطنية، وتعزيز الوعي لدى المجتمع الوطني اللبناني.

ثانياً، تعزيز تعليم اللغة الأم للأطفال الصغار وتصميم المواد التعليمية العربية بطريقة موحدة. إن ترسيخ تعليم اللغة الأم للأقليات في اللغة العربية يسمح للأطفال بالتعلم واستخدام اللغة العربية، ومواصلة بقاء لغات الأقليات. ويؤدي تدريب الأطفال في البيت والمدرسة على تعلم واستخدام لغة موحدة إلى تحسن مستوى اللغة العربية لدى الأطفال والمراهقين بشكل فعال. ومن خلال أنشطة تعليم اللغة والنصوص الموحدة، يتم ترويج التاريخ الوطني للمراهقين والأطفال، وهذا ما يوقظ ذاكرة الأمة التاريخية، فينقلون العادات الوطنية، ويرثون الشخصية الوطنية، ويفدون الروح الوطنية والوعي القومي. وهذا من شأنه أن يحافظ على بقاء اللغة الوطنية وضمان استمرارها واستمرار الميراث.

ثالثاً، تعزيز تنمية اللغة العربية وصناعة الثقافات، واستخدام آلية السوق لتعزيز القوى المختلفة لحضر وتنظيم وتطوير ثقافة اللغة العربية المعيارية وتحفيز بقاء اللغة العربية الموحدة. وتساعد صناعة اللغة والثقافة الموحدة على تركيز الناس على الثقافة اللغوية، فيوفرون زخماً موضوعياً لحماية اللغة وتوريثها وتطويرها، وتشجيع إحياء اللغة والثقافة الإثنية. لذلك، سنقوم بتوجيه الموارد الاجتماعية لتوحيد تنمية صناعة اللغة والثقافة وبناء «أكاديمية» موحدة لثقافة اللغة العربية تكون فعالة وشعبية. ويمكنك الاستمتاع بسحر اللغة العربية من خلال المسرح اللغوي والثقافي الذي يسمح بقراءة قيمة اللغة الوطنية وفهمها.

رابعاً، الاستفادة الكاملة من معدات العلم والتكنولوجيا الحديثة ووسائل تنظيم لغة عربية موحدة وتسجيلها وحفظها ونشرها. ويتعين على الحكومة في هذا الإطار تشجيع وتنظيم استخدام وسائل وأساليب العلوم والتكنولوجيا الحديثة في الجامعات ومعاهد البحوث لتسجيل وتعلم اللغات المكتوبة، كما يتعين على الحكومات المحلية تشجيع الوكالات المعنية على وضع معايير اللغة العربية للبرامج الإذاعية والتلفزيونية ونشر كتب ومطبوعات عربية. ومن خلال تطبيق الإنجازات التكنولوجية الحديثة، يتم تعزيز نشر اللغة العربية.

خامساً، حماية التنوع الثقافي والالتزام بالتعايش المتجانس بين التعددية اللغوية، لا تؤدي العولمة إلى ظهور ثقافات جديدة فحسب بل إلى تقارب ثقافي أيضاً. وفي الوقت الحاضر، توجد ثقافات قوية وثقافات ضعيفة في جميع بلدان العالم. وتحاول الثقافات القوية استيعاب الثقافات المحرومة كما تحاول الثقافات الضعيفة الدفاع عن الثقافات المحلية والسعي للحفاظ على التنوع الثقافي. وقد تم ترسيخ وجود كل ثقافة بعد فترة طويلة نسبياً في التاريخ، فغدت الثروة الروحية المشتركة للبشرية جمعاء. ولا يرتبط الحفاظ على التنوع الثقافي بالتنمية الاقتصادية فحسب، بل يرتبط أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالحياة الروحية للناس. ونحن بحاجة إلى الاعتراف بالتنوع

الثقافي، وتنفيذ التبادلات الثقافية والمساعدة المتبادلة على أساس المساواة والمساواة الثقافية، واستخدام التبادل الثقافي كجسر للدولة والبلاد وإلى العيش معاً في سبيل التطور معاً. ويستند التراث الثقافي لبلد ما على اللغة كناقلة للمواد الخاصة بها. وتتجذر الثقافة الروحية الشاملة للبلاد في الثقافة الوطنية حيث تكمن حيوية الأمة وتماسكها، وذلك لأن مفتاح وجود البلد والأمة وتطورهما يكمن في توارث الثقافة التي تؤثر بشكل عميق في تطورهما، وكما يمكنها أن تعكس إيديولوجيتهما. ويُعتبر الاتحاد السوفياتي السابق مثلاً نموذجياً. وفي يوم العولمة الحالي، نحن بحاجة إلى الاعتراف بالفرص الجديدة المتعددة اللغات التي تؤمنها الثقافة من أجل تنمية اقتصاد البلد وحياة الناس. ومع ذلك، يتعين علينا أيضاً أن ندرك أن تآكل لغتنا الوطنية يتطلب حماية عربها. ومن أجل ضمان سلامة السيادة الثقافية في ظل عملية العولمة، نحن مدعوون إلى تشجيع انتشار المساواة ونموها وتنوع اللغة والثقافة في العالم.

خاتمة

تحتل اللغة أهمية كبيرة في حياة الأمم والشعوب، وذلك بحكم الوظائف التي تؤديها في حياة الأفراد والجماعات. فاللغة أداة تواصل وتخابل بين الناس مما جعلها الركيزة الأساسية في قيام المجتمعات وتماسكها. وهي رمز للهوية الفردية والمجتمعية والوطنية تحدد وتؤثر في الطريق التفكير وفي النظرة إلى العالم المحيط به وفي النظام الذي يتحكم بحياتها. اللغة الجامدة تقاوم الحداثة والتطور الفكري والثقافي، والمرنة المنفتحة مع قدرتها على التماسك والحفاظ على أصالتها، هي معيار للهوية الثقافية المنطلقة.

لبنان، كغيره من الأوطان الحديثة الاستقلال نسبياً، عرف صراعات الهوية اللغوية التي تجلت قبل الاستقلال وبعده. وقد زاد هذه الصراعات حدة تعدد ثقافات وطوائف ومذاهب سكانه. فمع أن الصراع الأساسي في الوطن اللبناني هو صراع أيديولوجي طائفي، يشهد لبنان صراعا بين التمسك بالجزور والانفتاح، وبين الحفاظ على التقاليد والأصول الشرقية والتغريب، وبين اللغة العربية الأم واللغات الأجنبية وبين التكلم باللغة الفصحى والتكلم العامية.

وقد ينتج فقدان الهوية الثقافية عن تعزيز اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية، والتميز الثقافي اللبناني عن تعزيز العامية على اللغة العربية الفصحى، والذوبان في المحيط العربي المتراجع نسبياً مقارنةً بمسار التطور العالمي عن تقليص دور هذه اللغات الأجنبية. تعمل وحدة اللغة التي تستعملها الجماعة وطناً كانت أو قومية على تسهيل التواصل بين أفراد الجماعة فقد يكون: لتوحيد رؤيتهم وتقريبهم فكرياً وثقافياً، تأثير على تطور الجماعة اقتصادياً واجتماعياً.

مراجع والمصادر

- أب محمد جماعة، الهوية المتعددة الأبعاد، المشهد التونسي، أطلع عليه بتاريخ ٢٠١٦-١١-٣.
- سعاد بضياف، لبوخ بوجملين: أثر الهوية اللغوية في تطور اللغة العربية، مجلة الأثر، العدد ٢٥، ٢٠١٦.
- أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، ص: ٧٣.
- رمزي منير بعلبكي، وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العرب إشكالية تاريخية وثقافية وسياسية، ص: ٥٢.
- بسام بركة، فايز الصياغ وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح، ص: ٨.
- أبوعسلي، دلال: التعدد اللغوي طبقي لاطائفي، النهار، ١٩٩٨/٨/١٤، ١٣.
- محمد مسلم، خصوصيات الهوية وتحديات العولمة، ص: ٣.
- Weilie Zhu: Strategic Studies on International Cultures, Shanghai: Shanghai Foreign Language Education Press. 2002. pp91.
- Diab, Lutfi R. Lebanese students' belief about learning English and French: A study of university students in a multilingual context. PhD dissertation, The University of Texas at Austin. (2000).